

## معنى العبادة

الاستاذ محمد الحكيم

سفتى محافظة حلب - سورية

لقد تكرم علينا سماحة سفتى محافظة حلب الاستاذ محمد الحكيم بارسال  
عجالتة حول العبادة، وقد كتبها فى اخرج ساعات من المستشفى، قبيل اجراء  
العملية الجراحية عليه لاجل مرض المرارة، و هذا ما يدل على اهتمامه البالغ  
بالموضوع. ندعو الله الكريم ان يشفيه شفاء عاجلا آجلا وان يمتع القراء  
الكرام برشحات قلمه و نفحات فكره.

— التحرير

### معنى العبادة :

قال الله سبحانه و تعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . صدق الله  
العظيم لقد كرم الله الانسان وجعله خليفة فى أرضه ليعمرها بالعدل والعلم والمعرفة  
والحكمة وأشرف العلم معرفة الله، و معرفة شرعه القويم، من أجل السلام والطمانينة،  
والخير والفلاح ولا يكون هذا صالحا الا اذا نهج الانسان المنهاج الصحيح المنطبق  
على شريعة الله و حياة الانسان فى هذا العالم، علم و عمل، و معرفة الله لا تكون  
بالظنون والاوهام ولا بالتخرصات والتخمين، ولا بالاقيسة والمقارنات. ان معرفة  
الله لا تصح الا بما وصف الله به ونفسه عن طريق الصادق المصدوق، عن طريق  
الانبياء والمرسلين الذين اوحى الله اليهم ليبينوا ما يجب على الانسان من معرفة  
الله و معرفة الدين و صحيح اليقين . وقد تغير الكثير من تعاليم الانبياء و حرفها  
اتباعهم، ولم يبق صافيا من غير كدر، حقا من غير تحريف او تزوير الا ما نزل

على خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي ارسله الله رحمة للعالمين بشيرا و نذيرا، وجعل رسالته خالدة آبدة على مدى العصور والأزمان . ولقد نسخت شريعة الاسلام كل شريعة قبلها، واصبحت معرفة الله لا تصح الا عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم فهو باب الله و كل من ادعى معرفة الله عن غير طريق محمد صلى الله عليه وسلم فمعرفة باطلة .

و بما لا شك فيه ان الشريعة الحققة هي التي ترسم قواعد عبادة الله بمد معرفته الحقيقية فشريعة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي توضح معالم عبادة الله على الوجه الصحيح لأنها وصلت اليها خالصة مصفاة من جميع الشوائب سواء كانت بالوحي الكريم المتمثل بالقرآن العظيم الذي ضمن الله حفظه من كل تحريف او تغيير، ونحن نتعبد الله بتلاوة هذا القرآن بالفاظه بفهم مساليه وانغراضه بتطبيق تساليه على أعمالنا او بالوحي المتمثل في السنة الصحيحة والحديث الشريف فهي متنسقة تماما مع الهدى القرآني، ولقد كان خلق محمد صلى الله عليه وسلم القرآن غير أننا لا نلتقي الا بمعاني السنة الصحيحة لا بتلاوة الفاظها كما هو الحال في القرآن الكريم هذا وان سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها جلائل الاعمال التي تام بها وقد كتب الله له النصر والتوفيق لمهي من أعظم البراهين الدالة على صدق رسالته، وأنه حقا قد بلغ شرع الله بامانة و صدق، و نشر دين الله الذي نيه المعرفة الصحيحة وبه العمل المقبول من الله . و عبادة الله انما تصح باتباع هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعدم مخالفته في أساس العقيدة السليمة المبنية على معرفة الله و توحيده والاعتقاد باسمائه الحسنی و بملائكته ورسله و بالكتب السماوية المنزلة قبل التحريف و التزوير مع الايمان بالقرآن الكريم جملة و تفصيلا والايمان باليوم الآخر، وأن القدر من الله سبحانه و تعالى . و يتلخص هذا الايمان الصحيح ان نؤمن بجميع ما انزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم

جملة و تفصيلا ايمانا جازما لا يتطرق اليه شك ولا يتسرب اليه وهم، (من هنا بدأت اكتب وانا فى المستشفى لاجل عملية جراحية تتعلق بالمرارة، أسأل الله الشفاء) أنك عبد الله وانه هو المعبود بحق و عليك ان تخضع لله ولشرع الله، لا تعبد سواه، ولا تطلب ولا تستعين قلبيا الا بالله تطلب منه بعد اليقين به ان يهديك الصراط المستقيم، صراط الذين انعم الله عليهم من الانبياء والمرسلين . ذلك هو سوجز جدا عن معنى عبادة الله المتمثلة باتباع هذه الشريعة الخالدة فى الاعتقاد و اليقين والعمل الصالح الصادق المتين فالعبادة ليست بقاصرة على مجرد الاعتقاد او المقرونة فقط بالاعمال التى نسميها وحدها اعمالا تعبدية من صلاة وصيام و زكاة و حج بل أن العبادة تتناول جميع الاعمال المشروعة حتى التى يظهر عليها انها اعمال دنيوية بشرط ان تكون النية صالحة خالصة لوجه الله، وكم من عمل ظاهره التعبد، فسد بفساد النية بل ربما كان معصية . ان من أكل طعاما او تناول شرابا بنية التقوى على طاعة الله فله ثواب العبادة، و من صلى رياء و نفاقا فقد عصى الله، واذا صدقت النية فى المباحات فذلك من خير الاعمال، تبسمك فى وجه أخيك صدقة، النفقة على العيال صدقة فضلا عن عمل الخير بغية ارضاء الله من اجل منفعة عباده. فالنية هى الاكسير العجيب التى تحول المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة. و قد كان النبي صلى الله عليه وسلم صبيحة يوم مع بعض اصحابه فشاهدوا شابا جلدا قد بكر يسعى، فقال بعضهم ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم، مه ! ان كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو فى سبيل الله، وان كان قد خرج يسعى على ولد له صغار فهو فى سبيل الله، وان كان قد خرج يسعى على ابوين له شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وان كان قد خرج يسعى مكثرة و سفاخرة و سفاخرة فهو فى سبيل الشيطان او كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام .

ان بعض الناس يفهم من العبادة انها مجرد اجهاد النفس و تحميلها المشاق من كثرة الصيام والافراط فى الصلاة او الذكر الظاهري و يسعى لان يبدو عليه سمات الذاهدين المتقشفين . لقد كثر هذا النوع من المظاهر ففهموا ان الورع هو فى مظاهر التعبد او الحرمان من زينة الحياة والطيبات التى احلها الله لعبادة كى يحمده و يشكروه . بينما ان الشريعة الاسلامية تناولت شؤون الحياة فلا مانع من الطعام والشراب والصحة والنظافة بل ربما وجبت اذا حسنت النية : و ان افضل ما يقصد فى العبادات هى الاخلاق الحسنة والآداب الجميلة وان الصلاة والصيام والحج والزكاة هى ذرائع جميلة من أجل صلاح الفرد والمجتمع منققة مع اليقين وصميم الدين .

والمسلم يتعبد الله اما بالعلاقة بالله، او بالمسلمين او بغير المسلمين، علاقته بالله تبنى على أساس اليقين بالله وانه المنعم المتفضل الخلاق المبدع لا شيء فى هذه الكائنات الا بخلق الله فهو على كل شيء قدير و يعلم الاسرار والخفايا يعلم خائمة الاعين وما تخفى الصدور . والانسان لا يذل ولا يخضع الا لله المعبود بحق و هذا لا ينافى احترام اهل الفضل والتأدب معهم لانه ليس من جنس العبادة المعروفة عند السطحيين واذا شكر العبد اهل المعروف و حمدهم على معروفهم فهو يعود الى الله لانه الله هو المنعم الحقيقى . والاقرار بالفضل لاهل الفضل من المحاسن الشرعية والاقرار بالفضل لاهل المعروف لا يتنا فى مع الشعائر الاسلامية، اما علاقات المسلم بالله من الصلاة والزكاة والصيام و الحج كما ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة التى توضح لنا كيفية اقامه هذه الشعائر . فتلذذ ذرائع، اما علاقة المسلم بالمسلم فانما هى علاقة محبة وسلام و تعاون على الخير و علاقة نصيحة وارشاد بالحكمة و اكرام ووداد ووفاء بالعهود و تنظيم شؤون الحياة الاجتماعية والعلمية والصناعية والعملية و اتقان لجميع الافعال التى تمارسها

و تنقيتها من شوائب الفوضى والاهمال والخلل مع الحرص على التكامل والبعد عن كل ما يسيء الى المجتمع والضجر والترفع عن ارتكاب الآثام، والشريعة ما تركت شيئا من فنون الخير الا وامرت به وندبت اليه وما تركت شيئا من أسباب الشر الا ونهت عنه .

وعلاقة المسلم بغير المسلم انما هي اخوة انسانية والانسان أخو الانسان أحب أم كره والخلق كلهم عيال الله واحبهم الى الله انفعهم لعياله بشرط ان يترك غير المسلمين باب الدعوة الى دين الله مفتوحا لارشاد البشرية الى السعادتين الدنيوية والاخروية فاذا ما اوصدوا هذا الباب وسدوا الطريق الى الدعوة الى الاسلام ووقفوا يحجبون النور و قاوموا الهداة المرشدين هنالك تجب مقاومتهم و في انواع الجهاد اطاحتهم عن هذا الطريق و يجب اعلان الحرب عليهم حتى يحكم الله بين المسلمين و بين المعاكسين والله احكم الحاكمين .

ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين و يحمل الصالح معنى نشر الهداية واعمار الارض بالأسن والعدل على مقتضى العلم الصحيح والمعرفة الصحيحة وذلك تحت راية تسييد الله و توحيدده و طاعته . واذا اكتفى المسلمون بمجرد الايمان القلبي من غير رصيد عظيم من العمل الصالح فان غير المؤمنين اذا مارسوا هذا العمل الصالح يتغلبون على المسلمين الغافلين ، و يتولون على بلادهم و يسومونهم ابشع ضروب الذل والهوان . وان من ارقى العمل الصالح الذى امر الله به انما هو العلم والنظام والاتقان والمحبة والتعاقد والتساند . ان مجرد الايمان الخالى عن العمل التعبدى الخالص و عن العمل الدنيوى الذى فيه رفعة الكيان، وسمو المجتمع، ان هذا لا يكفى لآن يرث المسلمون الارض، لآئهم فقدوا معنى الصالح والاصلاح . وان اجمل المقاصد، و اشرف الدين

والعبادة يتمثل مجمله بعبادة الله، واقامة الشعائر و بالمحبة و بالتعاون، و بالتعلم، خصوصا العلوم الكونية فقد امرنا الله بالتفكير والنظر فى آلائه، وفى عجائب الارض والسموات والمراد من التفكير، التفكير العلمى والفلسفى لا مجرد التفكير العاسى السطحى . ان اسة هذا شأنها لا يغلبها خصوصها، وهى تحصل على ما تريده من الكرامة و نشر الهداية والحكمة . ولقد امرنا الله بالتفكير السليم الذى يتيح السكارم و علو الهمة، والصناعات المفيدة وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم :  
 ”لا عبادة كالتفكر، وتفكر ساعة خير من عبادة ستين عاسا، .

لقد تفنن اسلافنا وأتقنوا العبادة والمحبة والصناعة وجميع لمزايا فاحترسهم الاعداء وهاهبهم الالءاء و عاشوا فى مجتمعهم سعداء، ذلك لان المؤمنين بحق والعاسلين بصدق ايدهم الله، و نصرهم بملائكته الكرام فى جميع الميادين . ذلك ما حصل لاسلافنا رضى الله عنهم، و جعل مرارا لمن نهج نهجهم فى جميع ادوار التاريخ، اخلصوا لدينهم عن معرفة، وعبدوا الله على مقتضى العبادة و اقاموا العدل والسلام على قواعد السحبة والنظام فورثوا الارض بصلاحيهم، ويفهمهم حقيقة العبادة لله كما هو مقتضى الاسلام . و لما ترك المسلمون هذه الاركان الهامة واكتفوا باسم الاسلام فقط، قصر فهمهم عن حقيقة العبادة التى تجتمع بين السعادتين الدنيوية والاخروية وركنوا الى انزاع الجرائم والاثام تقوض بناؤهم و عانوا انواع التعاسة والشقاء ومارسوا ضروب الذل والمهوان .

لست اطيل فى هذا البحث، ولا استطيع تتبع افكارى وخواطرى التى تزدهم خصوصا و انا فى المستشفى انظر حتى تجرى العملية الجراحية ولكنى ارقب الفرض السانحة للتوسع فى المستقبل، هذا وان الامل عظيم بنهرص المسلمين قريبا من كبوتهم، و يقظهم من غفلتهم واختم كلاسى بجاذثة وقعت لى دار فيها البحث عن فكرة العبادة والدينونة جرت لى فى سطار اورلى بباريس منذ بضع سنوات، ذلك

اننى وقت بزوغ الفجر بادرت الى الوضوء فى المطار واسرعت فى صلاة الصبح بعد الاذان والاقامة و كان المطار يعج بألوف المسافرين، فسألونى بعد ان انتهيت، سألنى بعضهم عن حقيقة عملى، ماذا اقصد به فاجبته بانها الصلاة، ثم بدأت اشرح لهم بناء على طلبهم روح الاسلام، و شرحت لهم محاسن الدين، و كيف يدعو الى العقيدة الحقّة و الى اقامة الشعائر التعبديّة، و الى جمع الكلمة و الى المعرفة الشاملة و الى اتقان الصناعات و الفنون، و الى التعاون على البر و التقوى و النهى عن الفحشاء و المنكر و البغى، و الظلم و العدوان و اسهبت لهم فى ان الله يأمرنا بالمعرفة و العدل و ان هذا نتيجة حمل الأمانة من قبل الانسان، و ان الحارس لهذه العبادة هو اليقين بالبعث و يوم الحساب، فاذا بواحد من السامعين يجيبنى بان هذا ليس عبادة و ليس بدين، ان معنى هذا ان تعيشوا بغبطة و سعادة فى هذه الدنيا و ان تنالوا كل ما يسر النفس و يسعد البدن ثم قال ان حقيقة العبادة هى مجرد التقشف و ارهاق الجسم، و الحرمان من متع الحياة، و خلو اليدين من كل ما تنهأ به البشرية، بتعذيب الجسم و هذا هو اساس العبادة، فقلت له يا أخى الله موجود ام لا ؟ قال : موجود، قلت له ان الله غنى عن العالمين و عن الفقراء اليه، ان الله لا يحتاج الى مجرد تعبنا و حرماننا من مقومات الحياة ان الله قد جعل عبادتنا اولا صلاة و زكاة و حجا و صياما فاذا احسنا القيام بهذا كان نفعه راجعا اليها، ثم ان الله فرض علينا العلوم و فى رأسها معرفة الله كما فرض علينا مختلف الفنون و الصناعات و أمرنا بالمحبة و النظام و الاتقان و شرحت له بان عبادة الله من اوجب الواجبات ولكن نفع ذلك راجع اليها و بها تجنى الفوائد التى تحصل عليها فى الدنيا و الآخرة و الله غنى عن العالمين .

أن فى هذه العبادة رضا و سكينّة و طمأنينة و مجانبة الفوضى و القلق فنحن بها سعداء فى الدنيا اما فى الآخرة فنحظى بالنعيم المقيم .

ان عبادتنا كما تحوى الاعتقاد السليم والصلاة والصيام والزكاة والحج  
 فهى ايضا مكارم و آداب ”انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق“، و تحوى اتقاننا لمختلف  
 الصناعات و اتقاننا للزراعة والتجارة وسائر الاعمال الادارية وما يتعلق بشئون  
 الدنيا و معرفة احكام الحلال والحرام كل ذلك فى اطار توحيد الله و تمجيده، وكل  
 ما يفيد الفرد والجماعات ولا يضرهم، كما تحوى ترقب يوم الحساب، فالطيبات  
 والملذات المشروعة ليست ممنوعة اذا لم تكن حراما، وان عشاق المادة للمادة فقط  
 و مفكرى الدينونة الحقه يعيشون فى قلق و اضطراب ولذائذ ظاهرية سوقنة وهم  
 مثل المدسنيين على معاقره الخمر فى لذة وهمية ينخدعون بمشاعرها مؤقتا ثم  
 يعودون الى آلامهم . ان لذائذهم تخدير حتى يتجنبوا مخاطر واقعياتهم.

هنالك صفق الفرنسي ورفاقه من هذه الحقائق الرائعة وقالوا ما اروع هذه  
 الفكرة فى الدينونة، أن هذا شي عميق لذيد و يعطى فكرة جيدة عن العبادة،  
 فكرة مثالية واقعية . هذا ملخص ما ذكره الفرنسيون من تعليقات على شرحى  
 لفكرة العبادة والدين التى اوجزت جدا الكتابة عنها سواء فى اصل الموضوع  
 او فى حديثي معهم .

